نظرية الفناء عند المتصوفة ...
دراسة وتقويم بمنظار الفكر الإسلامي الأصيل

Idris A Somad
Program Pascasarjana Universitas Muhammadiyah Surakarta

Abstract

Moslem had passed through the long thinking history journey, even passed the difficult times, when in balancing happened between the original thinking with Ijtihad mechanism that carried out by a part of Moslem thinkers from time to time. It could be observed specifically in 4H / 9 AD century. In that time was appeared many variegated of thinking theory, such as : "Al-Fana" theory that was appeared by a suffi thingker AL- Bustami, that lived in the time of khalifah al-Mahdi khalifah Abbasiyah the third / 3 and Al Mutawakikil khalifah abbasiyah the tenth/10, or exactly in half the second / 2 H century up to one third/ 1/3 3 H century , that mentioned as the time of Moslem because of the opening ummah thinking and the advance of Moslem tamaddun.

Even though this "Al-Fana" theory has positive values in motivating a part of ummah to carry out worship just only for Allah SWT, because among the meaning of AL- Fana is the deepest loving to The inner Most of high (khaliq). However, this theory also contained of negative values that gave a big influenced to the life style of Moslem. It was happend because of the contamination of this thinking by the other import thinkings such as ; Persia and India philosophy. Actually this Al-Fana theory was something new from the appearance aspect, therefore it needed critical analysis study; because this theory is built up on the meaning of a good attitude of human being, as it is said in this theory that "Al-Fana is releasing a bad attitude." However, in the other side of this theory appeared many problems of thinking from the beginning, now adays, even in the future.

Keywords: *Al-Fana Theory, sufistic thinking, attitudes, Persia and India philosophy.*

الخلاصة

إن الأمة في تاريخها الفكري قد مرت بطور صعب، حيث لايتوازن بين وجوب التمسك بالأصول ولزوم تطوير الفكر بمبادئ الاجتهاد وتجديده وفق مقاصد الشريعة ؛ نستطيع أن نتلمس ذلك بشكل خاص في القرن الرابع الهجري أو التاسع الميلادي –وقد سماه بعضٌ بعصر الفكر الوافد– ، فنشأت نظرية الفناء في العصر الذي عاش منشئها المعروف وهو أبو يزيد البسطامي فهو عاش في فترة عصر الخليفة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين و عصر الخليفة المتوكل عاشر الخلفاء العباسيين أو بالأحرى عاش من الشق الثاني للقرن الثاني إلي ثلث القرن الثالث الهجريين التي يعبر بعض المفكرين عنها بفترة عصر النهضة الإسلامية لما شهد فيها تطورا كبيرا، و انتقالات عظيمة، من حيث انفتاح الفكر الإسلامي وازدهار التقدم المادي.

مهما يكن من أمر هذه النظرية من إيجابياتها لتنشيط الأمة بالقيام بالعبودية لله وحده – إذ أن من معاني الفناء عند المتصوفة شدة المحبة، "والذين آمنوا أشد حبا لله"، وشدة المحبة تحفز المرء على أداء العبادة لله وحده.–، إلا أنها لاتخلو من سلبيات يتأثر بها بعض المسلمين في أفكارهم الأصيلة، مما جعل بعضهم ينحرف عن التعاليم الإسلامية الأصيلة؛ ذلك أن هذا الفكر الصوفي اختلط بالأفكار الفلسفية الفارسية والهندية.

ونظرية الفناء نظرية مستحدثة من حيث المنشأ والمبدأ، فهي تحتاج إلى دراسة وتقويم، لأن هذه النظرية من حيث أصل المعنى في اصطلاح الصوفية نظرية ترتفع إلى مقام كريم من الأخلاق الإنسانية، فالفناء في نظرهم التخلي عن الأخلاق المذمومة والتحلي بالأخلاق المحمودة. لكن في هذه النظرية إشكالات فكرية في الماضي والحاضر بل في المستقبل.

المصطلحات الرئيسة : نظرية الفناء، الفكر الصوفي، الأخلاق، الفلسفة الفاريسية والهندية

القرآنية التي تختتم بعبارات : أفلا تعقلون ، أفلا تتفكرون، أفلا تبصرون أو بعبارات أخرى في نفس المراد : لعلكم تتفكرون ، لعلكم تعقلون وما أشبه ذلك.

توطئة

الفكر الذي هو عمل عقل الإنسان اهتم به القرآن الكريم بشكل خاص ، إذ جعله أسلوب التدبر من أجل الوصول إلى الطريق المستقيم. فكثيرا ما نرى الآيات

الشريعة ؛ نستطيع أن نتلمس ذلك بشكل خاص في القرن الرابع الهجري أو التاسع الميلادي ـ وقد سماه بعضٌ بعصر الفكر الوافد ـ ، حيث إن الفكر العام في أوساط الأمة تنتسب إلى الإسلام لكنه تلبث بأفكار مشبوهة، فتسربت في أوساط الأمة الفلسفة الإغريقية (اليونانية) التي أصدرت تعاليم المنطق والقضايا الفلسفية الأخرى عن الإنسانية ونظريات الحياة، ثم نشر التصوف اليوناني والتصوف الشرقي من الفرس والهند بخاصة ألوانا من النظريات عن الإنسان والكون وحقيقة الحياة، ومن ثم انتشر في أوساط الأمة أشكال التراث من الديانات غير الإسلام بدليل كثرة الإسرائيليات في التراث الإسلامي.

قواعد التقويم في الإسلام

إن الفكر الإسلامي عمل فكر الإنسان المسلم يستمد من أصوله ومباديئه الأصيلة، فمهما يكن الفكر لم يخل من خطأ وغلط فإن الفكر المستمد من أصوله أقرب إلى

ولذلك نجد بعضَ المفكرين المسلمين يرى أن الأزمة التي تواجهها الأمة الإسلامية في هذا العصر الراهن هي في حقيقتها الأزمة الفكرية وليست الأزمة العقيدية، لأن الأزمة العقيدية التي تصيب الأمة حاليا إنما هي أثر من آثار الأزمة الفكرية من حيث الهدف والمنهج والأسلوب.

وقد مرّ الفكر الإسلامي بمراحل متباينة طوال العصور المتلاحقة ؛ ففي العصر الصحابي الصحابي كان الفكر الإسلامي ملتزما بالمبادئ الإسلامية الأصيلة، فكان يستقيم بالأصول الأساسية والفروع الاجتهادية، حيث إن الفكر في ذلك العصر في جانب لايتطور فيخرج من الأصول ومن جانب آخر لا يتجمد بالتراث بل يتطور متمسكا بمبادئ الاجتهاد وأسلوبه السديد.

ومن ثم فإن الأمة في تاريخها الفكري مرت بطور صعب، حيث لايتوازن بين وجوب التمسك بالأصول ولزوم تطوير الفكر بمبادئ الاجتهاد وتجديده وفق مقاصد

١ تمثل هذا الفكر الوافد في البيئة الإسلامية في شكل تيارات يحملها فئام من الناس ويتبنون قضاياها ويجعلونها معيار النظر إلى ما سواها، حتى الفكر الإسلامي الأصيل بل الوحي الإلهي أحيانا. فقد تمثلت الفلسفة اليونانية بمنطقها الصوري في تيار الفلاسفة الذين بعثوا الحيوية فيها وطوروا أنساقها، وعظموا رجالها من اليونان واحتكموا إلى منطقها. من أشهرهم في هذه المرحلة: أحمد بن محمد مسكويه (٤٢١هـ) والشيخ الرئيس علي بن سينا (٤٢٨هـ) ومحمد بن عبد الملك الطفيل (٥٨١هـ) وابن رشد الحفيد محمد بن محمد (٥٩٥هـ) ـ انظر: د/ عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، حقيقة الفكر الإسلامي، دار المسلم الرياض، ١٤١٥هـ، ص: ١٥٣ .

٢- على عكس ذلك أن كل ماجاء من غير القرآن والحديث يمكن مناقشته وبالتالي الرفض أو القبول، وذلك داخل في إطار الاجتهاد الذي فتحه الشرع ولن يغلقه أبدا من أجل مصلحة الناس في كل زمان ومكان.

٣- إن إجماع الصحابة رضي الله عنهم هو أعلى مراتب أنواع الإجماع، لأن الصحابة هم أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعصرهم –لا خلاف بين الأمة– هو خير القرون عبر القرون التاريخية، كما قال صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ...." –الحديث رواه البخاري ومسلم–.

٤- إن إجماع الأمة الإسلامية هو من أحسن مصدر التلقي بعد القرآن والحديث وإجماع الصحابة، لأن هذه الأمة كما بين الله عز وجل في كتابه الكريم خير أمة أخرجت للناس، ومن ثم فإن هذه الأمة لاتجتمع على ضلالة كما بين ذلك رسول الهدى صلى الله عليه وسلم.

٥- الأخذ برأي أي شخص أمر جائز مادام لايخالف ما جاء في الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة وإجماع الصواب من الفكر الحر الذي ينطلق بدون أي ضابط وقاعدة ؛ فمن أجل رسوخ فهم التقويم في التصور الإسلامي لابد من دراسة القواعد أو الضوابط للتقويم في الإسلام، وهي ما يلي:

١- كل ماجاء من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف –صحيحا صريحا– يجب تسليمه وإثباته بوصفه حكما شرعيا. تقوم هذه القاعدة على الأدلة منها:

√ البقرة: ١٤٧ قال تعالى: (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

√ يونس: ٣٥–٣٦ قال تعالى: (قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق، قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون. وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغني من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون).

√ الحشر: ٩ قال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب)

الرشيد والمأمون. ومن ذلك العصر ظهر في البلاد الإسلامية الفلاسفة المسلمون أمثال: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (١٨٥-٢٥٢هـ/٨٠١-٨٦٧م) الذي أبدع بفكرة التلفيق (ECLECTISM) بين الفكر اليوناني والدين الإسلامي. وبرز أيضا الفرابي أبو النصر محمد بن محمد (٢٥٩-٣٣٩هـ/٨٧٠-٩٥٠م)، وقد كان الفرابي كثيرا ما يُعْلي فلاسفة اليونان أمثال أرسطو وأفلاطون إذ قال مرة: "لولا نصر من الله لمفكري الإسلام بواسطة هذين الحكيمين أفلاطون وأرسطو وأتباعهما لكان الناس في حيرة واضطراب".

إن الوضع الفكري عندئذ بالتالي قد أدى إلى ظهور أفكار تحتاج إلى تمعن في دراستها، وكان ذلك في سائر الجوانب الفكرية، وبخاصة الأفكار التي طرحها المعتزلة والأشعرية الماتريدية، بحيث إن بعض أفكارهم ينحرف عن الفكر الإسلامي الأصيل، ومن ثم أن أفكارهم لاتتجاوز عن إعلاء نظريات فكرية لاتتأتى إلى حيز التنفيذ العملي.

وذلك لاينفي وجود العلماء العاملين حاملي رسالة الحق الذين يتحملون في عبء الدفاع عن الفكر الإسلامي الأصيل، أمثال الصحابة، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحكمة ضالة المؤمن أني وجدها فهو أحق بها -الحديث-. وذلك مما يدل على انفتاحية الإسلام مع مراعاة الضوابط الشرعية.

خطر الفكر الوافد الدخيل على المجتمع الإسلامي.

ومن أنواع الفكر الوافد على الفكر الإسلامي فكرة التصوف الذي بدأ زاهدا في زهرة الحياة الدنيا الشاغلة عن الله، وعفة عن المشتبهات، وبذلا للنفس والوقت والجهد والمال في سبيل الله، جهادا وعلما ودعوة إلى دين الله، فقد تحول بتأثيرات الإشراقية الدخيلة إلى تيار فكري وعملي في الحياة تبنى نظريات مخالفة للإسلام، كنظريات قطع الصلة بالجوانب الجسدية، والرياضات الروحية الشاقة والفناء واعتزال الحياة الاجتماعية ووحدة الوجود وسقوط التكاليف والمشيخة الروحية ومحاربة العلم العقلي التجريبي.

وهذا الطور الفكري الصعب في الحقيقة مخاطرة من حركة ترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية في القرن الثاني والثالث الهجري، وبخاصة في عصر الخليفة العباسي هارون

٢ د/ عبد الرحمن الزنيدي، السابق، ص: ١٥٤.

انتقالات عظيمة، من حيث انفتاح الفكر الإسلامي وازدهار التقدم المادي . حتى قال بعضهم إن الخليفة هارون الرشيد صاحب العصر الذهبي، و الخليفة المأمون صاحب أزهي العصور الإسلامية حضاريا.

إن نظرية الفناء نشأ مع نشوء نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود حيث اختلط التصوف بالأفكار الفلسفية الفارسية والهندية. وفي هذا شكك بعض المستشرقين باعتبار هذا الاتجاه الصوفي في هذه المرحلة يمثل التصوف الإسلامي وقرروا أنه إذا لم توجد أي فكرة من هذه الأفكار لدى المتصوف فإنه لايعتبر متصوفا إسلاميا [٤] .

يقول المستشرق نيكلسون: "ويمكن القول أن نسبة الغزالي إلى الإسلام أقوى من نسبته إلى التصوف الإسلامي، وإنه ليس من صوفية المسلمين بالمعنى الدقيق لأنه ليس من أصحاب وحدة الوجود" . كما يقول أيضا: "فإن أثر المسيحية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة والفلسفة البوذية عوامل لاسبيل إلى إنكارها في تكوين التصوف الإسلامي" [٥] .

وقد ذكر ذلك ابن خلدون في أبي الوفاء ين عقيل (٥١٢هـ)، والعالم الكبير الطوشي (٥٢٠هـ)، وابن صلاح (٦٤٣هـ) والإمام النووي (٦٣١هـ) وشيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) وابن قيم الجوزية (٧٧١هـ) وأبو إسحاق الشاطبي (٧٩٠هـ) والعز بن عبد السلام (٦٦٠هـ) وابن خلدون (٨٠٨هـ) وغيرهم كثير [٣] . إنهم اضطرهم موقف الدفاع بدلا من الإبداع والبناء، إذ اشتغلوا عن عملية النقد والتقويم على الفكر الوافد بدل صناعة الأفكار الجديدة تهم الأمة الإسلامية.

نشوء نظرية الفناء

نشأت نظرية الفناء في العصر الذي عاش منشئها المعروف وهو أبو يزيد البسطامي فهو عاش في فترة عصر الخليفة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين المتوفي سنة ١٦٩ هـ ، و عصر الخليفة المتوكل عاشر الخلفاء العباسيين المنوفي سنة ٢٦٤ هـ أو بالأحرى عاش من الشق الثاني للقرن الثاني إلي ثلث القرن الثالث الهجريين التي يعبر بعض المفكرين عنها بفترة عصر النهضة الإسلامية لما شهد فيها تطورا كبيرا ، و

٣ نفسه ص: ١٥٦

٤ د/ محمد محمد الحاج حسن الكمالي، محاضرات في الفلسفة الإسلامية، ص: ٣١، ط: ١ عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الفاو للنشر والتوزيع والإعلان

٥ نفسه : ص: ٣٢

الناس بحرية الكتاب والفكر، وكانت تقام مجالس علمية للبحث والمناظرة في الفقه الطب والفلسفة وما إلى ذلك من أنواع العلوم والفنون في بلاط الخلفاء [٨] .

العيب هنا ليس في انفتاح الفكر عند المسلمين أو في قبول الفكر الوافد لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها" (الحديث)، إنما العيب عدم الاختيار الأصلح من الصالح وعدم ترشيح الصالح من الرديئ مما يؤدي بالتالي إلى التشويه في الفكر الإسلامي . وهذا عامل من عوامل نشوء الفكر الصوفي مثل نظرية الفناء عند البسطامي.

بل أدى الوضع إلى عملية الاضطهاد الفكري من قبل أصحاب التحررية الفكرية، مثل إكراه الناس على المسلك الفكري للخليفة المأمون الذي تمذهب اعتزاليا بخلق القرآن مما أدى بالتالي إلى إلقاء معارضيه في السجون، و دخول الإمام أحمد بن حنبل السجن لوقوفه ضد المعتزلة في هذه المعركة بمحنة القرآن وهو حادثة

مقدمته : "إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك" [٦] .

اتضح من ذلك أن التصوف في هذه المرحلة الفكرية قد ابتعد عن منهج الفكر الصوفي الحقيقي الذي استمد فكره من القرآن الكريم وسلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته، ومن ثم تميز الفكر الصوفي في تلك المرحلة باستقلاله من شوائب الفلسفة.

بخلاف الفكر الصوفي الذي انتشر وتطور في العصر الذي نشطت حركة الترجمة وبلغت قمتها [٧] حتى افتخر بعض الخلفاء المسلمين عندئذ وبخاصة الخليفة هارون الرشيد بإنشاء بعض المؤسسات العلمية من أجل انفتاح الفكر الإسلامي منها إنشاء بيت الحكمة الذي وضع أساسه الرشيد ثم أمده المأمون بالكتب العلمية المؤلفة والمترجمة في مختلف الفنون والعلوم ومن مختلف أنحاء العالم وبخاصة الروم وفارس واليونان والهند. كما افتخر بعض

٦ ابن خلدون، (عبد الرحمن ابن محمد)، **المقدمة ٤١٣**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
٧ انظر تفاصيل حركة الترجمة في كتاب العلامة الهندي شبلي النعماني "فضل الإسلام على حضارة الإنسانية" ترجمة الدكتور عبد العزيز عزت (سلسلة مجمع البحوث الإسلامية، السنة الثانية عشر– الكتاب السابع، ١٩٨١.
٨. انظر : "**مروج الذهب**" ج ٤، ص ١٩، ٢٠، ٧٧، ٧٨.

فإذا كان المعنى الاصطلاحي للفناء بهذا الحد بحيث لا يتجاوز إلى سلوك عبودي واعتقادي بألا يعتقد العبد المؤمن أن الله سبحانه يكون قسما لاينفصل عن نفسه، فيتوحد بالله بنفسه عند عبادته له سبحانه؛ إذا كان المعنى إلى هذا الحد فلا ضير في نظر الفكر الإسلامي الأصيل، بحيث إن العبد المؤمن مطالب أن يكون خاشعا في عبادته لله تعالى. والله أعلم بالصواب.

نظرية الفناء بين المثالية والواقعية

ما من فكر إلا ويحتاج إلى دراسة دقيقة، كما تحتاج إلى تقويم، لأن التقويم جزء مهم في القضايا الفكرية، ومن ثم فإن التقويم في نظر المسلم أمر هام ومهتم به، ذلك لاينطلق من النظرة الإنسانية فحسب، بل ينطلق من مصدر التصور الإسلامي أيضا، وفي ذلك أشار الله تعالى في قوله: "الذين معروفة في التاريخ الإسلامي [٩].

نظرية الفناء عند المتصوفة

وفي عرف الصوفية قد عرف "الفناء" بأكثر من تعريف وأشير إليه بأكثر من إشارة، فقد قيل: "الفناء سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء قيام الأوصاف المحمودة" [١٠]، وقيل: "الفناء هو فناء صفة النفس" [١١] كما قيل أيضا "الفناء هو الفناء عن المخلوط" [١٢]. فهذه التعريفات تشير إلى معاني التخلق بالأخلاق الكريمة والتخلي عن الأخلاق الذميمة، والفرار إلى إرادة الله بدلا من اتبع حظوظ النفس

وقيل: "الفناء هو فناء رؤية العبد في أفعاله لا فعاله لقيام الله له في ذلك" [١٣]، وهذا المعنى للفناء يشير إلى معنى أن العبد الصالح يجب أن يعتقد أن عمله الصالح لاحول ولا قوة إلا بالله ومن الله عز وجل.

٩ راجع تفصيل هذه المحنة في كتاب "**حلية لأولياء و طبقات الأصفياء**" للحافظ الأصفهني (أبو نعيم أحمد بن عبد الله)، دار الكتاب العربي ، بيروت، ، ط ٣ ، سنة ١٩٨٠، ص ١٩٦-٢٠٦.

١٠. القشيرى (أبو القاسم عبد الكريم)، **الرسالة ١/٢٢٨**، دار الكتب الحديثة، بدون تاريخ، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود الشريف

١١ الطوسى (ابو نصر السراج)، **اللمع** ص: ٣١٧، دار الكتب الحديثة ١٩٦٠، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور

١٢ الكلاباذي (أبو بكر محمد ابن اسحاق البخاري) "**التعرف لمذهب أهل التصوف**" تحقيق وتقديم محمود أمين النواوي (ط ٢، ١١٨٠ – مكتبة الكليات الأزهرية) ص ١٤٧.

١٣ . **اللمع**، ص : ٢١٧.

(سورة فصلت: ٤٠).

ووجه آخر للإشكال في تلك النظرية أن لايجوز أن يعطي الإنسان حبه إلا لله ، مع أن الإنسان في التصور الإسلامي الأصيل يحب في هذه الحياة أشياءً له الحق في أن يحبها، وقد يكون هذا الحب في نفسه سنة من سنن الله في هذا الكون، وطَبَعًا جبُل عليه، أو عادات نشأ عليها، وقد لايكون في هذا الحب حرج إذا لم يتجاوز حدوده المشروعة، بل قد يكون أمرا مرغوبا وشعورا مطلوبا. فللإنسان أن يحب نفسه فيعمل لإحيائها وإنعاشها وإسعادها (إن لنفسك عليك حقا) ويحب زوجه وأولاده وأهله (إن لأهلك عليك حقا). "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة" ، وأن يحب بلده ووطنه وقد قرن الله في الكتاب العزيز الإخراج من الوطن بقتل النفس "اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم" ، وكذلك قرن الإخراج من الوطن بالإخراج من الدين "لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم"[١٥].

وأرى أن الباحث الأستاذ أمل فتح الله زركشي قد أحكم في تقويم هذه النظرية من يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب" (الزمر: ١٨). فاتباع الأحسن من القول يكون بعد الدراسة والتحقيق ثم الاختيار الأمثل.

وتكون نظرية الفناء من هذا القبيل، فهي نظرية مستحدثة من حيث المنشأ والمبدأ، فهي تحتاج إلى دراسة وتقويم، لأن هذه النظرية من حيث أصل المعنى في اصطلاح الصوفية نظرية ترتفع إلى مقام كريم من الأخلاق الإنسانية، فالفناء في نظرهم التخلي عن الأخلاق المذمومة والتحلي بالأخلاق المحمودة. لكن في هذه النظرية إشكالات فكرية عندما قيل مثلا إن الفناء هو الغيبة عن الصفات البشرية، وقد يفهم من هذا أن لا إرادة للإنسان البتة وإنما هي إرادة إلهية مطلقة، ووجه الإشكال فيها أن ذلك التصور يخالف التصور الإسلامي عن المسؤولية الإنسانية في الحياة، بحيث إن كل إنسان له حريته وإرادته في أن يتصرف على الذي يرغب فيه مع التنبيه على أنه مسؤول عما يفعل[١٤] لقوله تعالى : "ليجزي الذين أساءوا بماعملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى" (سورة النجم: ٣١) وقال تعالى: "اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير"

١٤ انظر: د/ محمود محمد بابللي، الإنسان وحريته في الإسلام، ص: ١٧، دار السبل الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩٠م
١٥ محمد المبارك، نحو إنسانية سعيدة، ص: ٣٩-٤٠ ، دار الفكر بدون سنة

يتخلق الإنسان بأخلاق الله وهو المراد بالتحلي بالأخلاق الفاضلة.

لكن —كما قلنا سابقا— أن هذه النظرية لاتخلو من الجوانب السلبية، منها :

١- الإيمان بهذه النظرية يجلب الوقوع في جانب من الإسراف الفكري وهو الإفراط في أداء العبادة، مما قد يؤدي ذلك إلى القول بالحلول، مثل القول في مراتب الذكر وهي ذكر اللسان المستند من القلب، وذكر القلب وهو ذكر الخواص، وذكر السر ومعناه غيبة الذاكر في المذكور —الجملة— حتى لا يبقى له رسم فيكون المذكور هو الذاكر، لأن أوصاف المذكور تفنيك عن الذاكر (مشارق أنوار القلوب ص: ٨٣).

٢- إن في نظرية الفناء عدم المبالاة لمعنى التوسط في تحقيق الشريعة مما يُخشى أن يقع الإنسان في التفريط والإفراط. فعندما قيل لأبي يزيد "إني لاأصل التوبة" فردّ أبو يزيد قائلا: "لأنك تطلب العزة، والعزة لله"، فهذا القول يحتاج إلى التفصيل والتدقيق لأن الله قال في موضعين مختلفين في القرآن الكريم عن موضوع واحد وهو العزة، فقال سبحانه في موضع: ولله العزة جميعا، وقال في موضع آخر: ولله العزة ولرسوله

هذا الجانب في رسالته هذه. وبصورة عامة أن الناظر الدقيق في نظرية الفناء يرى فيها الجوانب الإيجابية كما يرى الجوانب السلبية. فمن الجوانب الإيجابية:

١- إن في نظرية الفناء نبع الحماسة في أداء العبادة لله وحده . إذ أن من معاني الفناء شدة المحبة، "والذين آمنوا أشد حبا لله"، وشدة المحبة تحفز المرء على أداء العبادة لله وحده.

٢- إن في هذه النظرية أيضا تحقيق معنى الطاعة والانقياد لله تعالى . حيث إن من معاني الفناء "التلاشي بالحق والبقاء الحضور مع الحق"، فهذا يجعل كل إنسان ذي فطرة سليمة يزداد طاعة وانقيادا لله تعالى.

٣- ففي هذه النظرية كذلك دفع الناس العملَ بـــحقيقة الخشوع لله عز وجل. فإن الفناء بمعنى التخلق وهو أن يترك ما سوى الله في عملية العبادة أمر مرغوب ومطلوب في الدين، وذلك في حقيقته الترغيب إلى الخشوع في أداء العبادة لله سبحانه.

٤- ثم إن تعريف الفناء بأنه الغيبة عن الصفات البشرية قد يكون المعنى أن

٤- الفرار من الاتفتاح الفكري إلى الجمود الفكري ، ذلك إذا كان الزهد في تصور الصوفي يعني ترك الدنيا فذلك لايناسب التصور الإسلامي الأصيل "إذ صرح المولى عز وجل في قوله : "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد في الأرض إن الله لايحب الفساد" .

٥- فالمطلوب في ذلك التوسط بين الانفتاحية المطلقة والانغلاقية الجامدة أو التوسط بين الجمود واللبرالي في الفكر والتوسط بين القدرية وبين الجبرية في العقيدة .

هذا فإن هذه السلبيات لاينقص احترامنا للبسطامي لما جاء من فكر مستحدث، ولاينقض دوره في تقدم الثقافة الإسلامية وارتفاع راية التراث الإسلامي في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، وجزاه الله عنا وعن المسلمين خيرا كثيرا. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون ، ففي الموضع السابق بين الله تعالى أن مصدر العزة واحد فهو الله، لكنه تعالى بين في الآخر أنه أعطى العزة لرسوله تعظيما لرسالته وللمؤمنين تكريما لإيمانه. والله أعلم.

٣- الحذر من الوقوع في الشرك بالله وحده ، حيث إن هدف الصوفي ليس طلب الجنة والفرار من النار وهو هدف العامة من الناس كما زعموا، إنما هدف الصوفي هو الوصول إلى مقام النبوة أولا ثم الترقي حتى يصل الفرد منهم في زعمهم إلى مقام الألوهية والربوبية، نلمح ذلك من كلام البسطامي مرة : "رفعني مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبايزيد ! إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زيني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا" (اللمع ص: ٤٦١)[١٦]. فإن هذا الكلام وإن كان قد يؤوله البعض تأويلا، فإنه يفهم القول بالحلول وذلك يخشى أن يجر المرء إلى أن يشرك بالله شيئا.

١٦ انظر: عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ص: ٦٥، ط: ٢ مكتبة ابن تيمية الكويت.